

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 10 (2010) : 15 – 39
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الجملة الاعتراضية والإعجاز

محمد السعيد بن سعد
قسم اللغة العربية وآدابها المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

مقدمة:

عنوان البحث ورد في جملة خبرية في منطوقها، إنشائية في مفهومها ذلك أننا نقول: إن العنوان يخبئ إشكالية نصها؛ ما علاقة الجملة الاعتراضية بالإعجاز، ما مدى إسهام الجملة الاعتراضية في الإعجاز، أين الجملة الاعتراضية من الإعجاز... إلخ. كلّ هذا يلخص إشكالية الموضوع ويضع القارئ أمام نافذة من نوافذ أهداف البحث والتي منها:

- **الكشف عن مستوى من المعالجة يعتمد بناء الإعجاز على أساس بلاغي.**
- **ما مدى إسهام التركيب الاعتراضي في الإعجاز .**

ذلك أن حقيقة الجملة الاعتراضية في نظم القرآن الكريم وما يتعلق بها من الخصائص القرآنية والتي من أمعن نظره وفكره، واستجمع في تقريرها خاطره أطلعته على حقائق مجهولة تحت الستار، وكشفت له عن وجه الإعجاز .

هذا بحث نحلق به في زاوية زوايا سماء القرآن الكريم الفسيحة؛ لنباحث ظاهرة من ظواهر النص الشريف التي تحتاج وقفة متأنية وتأملا عميقا وبحثا جادا، على أننا لا ندعي لأنفسنا مكان المفسر ولا موقف الباحث في الإعجاز وبخا ة ونحن ندرك أن للبحوث القرآنية خطرها بين الدراسات الإنسانية والعقلية .

وإذا بنا نضع الخطة التالية في عرض الموضوع:

أولا: مقدمة تناولنا فيها إشكالية البحث.

ثانيا: مدخل وقراءة في منظومة العنوان. الجملة الاعتراضية، خصائصها، الإعجاز .

رابعا: البسط وبه:

1- في الإعجاز وعنا ره.

2- الإعجاز الغيبي.

خامسا: خاتمة: ضمنت نتائج البحث.

مدخل:

بداية نحدد دائرة البحث ونضبطها، وذلك بالاعتراض ناعة "الجملة الاعتراضية".

الجملة الاعتراضية عرّفت من قبل البحثة قديما و حديثا ، ولذلك سنصطفي هنا ما اطمأنت نفوسنا إليه ولمسنا فيه من الدقة والشمولية وهذا ليس قبل أن نمدكم بالحد اللغوي للاعتراض.

فالاعتراض من عرض، واعترض يعترض اعتراضا، ورد في العين واعترض الشيء، أي ار عارضا كالخشبة المعترضة في النهر، واعترض الفرس في رسنه إذا لم يستقم لقائده.

ورجل عريض يتعرض للناس بالشر...، وسحابة عارض، والعارض من كل شيء ما استقبلك كالسحاب، والعروض طريق في عرض الجبل، وهو ما اعترض في عرض الجبل.... ويقال جرى في عرض الحديث ودخل في عرض الناس، أي وسطهم عارضة الباب: الخشبة التي هي مسلك العضادتين من فوق[1].

وورد في الصحاح: اعترض الشيء ار عارضا كالخشبة المعترضة في النهر، يقال اعترض الشيء دون الشيء أي حال دونه[2]...، وفي الحديث: "لا جلب ولا جنب ولا اعتراض"[3] فهو أن يعترض رجل بفرسه في السباق فيدخل من الخيل، ومنه حديث سراقة، "أنه عرض لرسول الله ﷺ وأبي بكر الفرس أي اعترض به الطريق يمنعهما من السير"[4] واعترض انتصب ومنع و ار عارضا كالخشبة المنتصبة في النهر والطريق ونحوها تمنع السالكين سلوكها، ويقال اعترض الشيء دون الشيء أي: حال دونه.[5]هذا الاعتراض في اللغة .

أما الاعتراض ا طلاحا: يكون جملة أو شبه جملة، أو الكلمة الجملة، أولا ننتقي من الحدود أدقها وأشملها، على أن التعريفات الا طلاحية لا تخرج عن التعريفات اللغوية،

فالتعريف اللغوي يعد جذرا للتعريف الا طلاحي أو هو كالحقيقة والمجاز، لأن التعريف الا طلاحي تفنن في المنع والعدول والظهور في مواضع غير متوقعة كالإقحام ومن المفاهيم التي وردت للجملة الاعتراضية:

لنبدأ بتعريف القزويني، يقول: "وحدها أن يُؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب"[6].

ومن تعاريف المحدثين نأخذ تعريف الدكتور تمام حسان، يقول:" اعتراض مجرى النمط التركيبي بما يحاول دون اتصال عنا ر الجملة ببعض اتصالا تتحقق به مطالب التضام النحوي فيما بينها"[7].

يقول أبو القاسم السجلماسي: "... لأنه يكون جملة بمعنى الجملة في ناعة النحو ويكون كل ما أزيد من الجملة، وقصة، والنحو أخص وضعا لأنه يكون جملة بالمعنى الأول النحوي فقط، ولذلك معناه عند النحاة (أي الاعتراض) جملة غرى تتخلل جملة كبرى..."[8].

تخيرنا من جملة التعاريف هذه الثلاثة نحسبها تفي بالمطلوب كحد دقيق للاعتراض الصناعي ويتضح ذلك من خلال هذه الخصائص كونها: جملة تتخلل أو تأتي في أثناء الكلام أو تعترض مجرى الكلام، نقول عنها: هي من وسائل الإطناب أو وسائل الفصل أو وسائل الإطالة والزيادة، أو من عوامل الترخص وانتهاك الرتبة، ولكنها في كل هذا هي تشكيل لغوي عدولي ينبئ عن نفسه في التركيب لأنه يحدث تغييرا في الدلالة الأ لية للتركيب.

من خصائص الجملة المعترضة كمبحث بلاغي:

1– إن التركيب لا يستمد روعته وجماله إلا من خلال الجملة الاعتراضية "اللافتة" والتي تبين عن نكت ما كانت لتكون لو لا وجود الجملة الاعتراضية.

لأجل هذا ألفينا الدكتور محمد أبو موسى يقول: "الجملة الاعتراضية تشبه في الكلام الثمرة الكريمة التي تسقط فور نضجها لا تبالي في أي موقع سقطت، لو أن المتكلم هيأ لها مكانا غير الاعتراض لما التفت السامع إليها، إلا بقدر ما يلتفت لغيرها من الجمل"[9].

ويقول الدكتور عبد المطلب: "ولا شك أن التركيب الذي يحتوي على الاعتراض يفرز دلالته في شكلها المتجدد من خلال هذا الاعتراض"[10].

ويضيف الدكتور أحمد ماهر البقري: "الجملة الاعتراضية، ويعني اعتراضها أنها دخلت في سياق وهي أجنبية عنه لحاجة في نفس القائل يريد التعبير عنها"[11].

2– ارتباط الجملة الاعتراضية بالأبواب النحوية حيث الجمل التي لا محل من الإعراب وبالأبواب البلاغية حيث المعاني والبديع.

يقول الأستاذ سلامة جمعة: "... إذا كان للنحو ملة وثيقة بالاعتراض الواقع بين جزئي الجملة، فإن الاعتراض بين المعاني المتصلة يفتح أمام البحث البلاغي رؤية واسعة ومجالات خصبة ثرية"[12].

3– الجملة الاعتراضية ضرب من البلاغة والتعبير الراقي، يقول الدكتور عبد القادر حسين: "والرماني لم يفته أن يتناول الإطناب – ومنه الاعتراض – بالذكر ويعتبره نوعا من البلاغة لأن المعني يحتاج إلى تفصيل، فالحاجة أشد والاهتمام به أعظم"[13].

ويضيف الدكتور محمود السيد شيخون قائلا: "والاعتراض فن عظيم من فنون البلاغة والبيان يشتمل على كثير من اللطائف والأسرار، وإذا تأملت شواهده في القرآن الكريم استبان لك أنها تنطوي على كثير من الدقائق والعجائب ..."[14].

وفي قول الدكتور أحمد قدور: "ويرى بعض الدارسين أن هذه الصفة تشع في التعبير الراقي..."[15].

4– ومن خصائص الجملة الاعتراضية أنها تحول دون اتصال عنا ر الجملة بعضها ببعض، ومن ذلك تكسب مزيتها في التركيب وخصو يتها كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

5– الجملة الاعتراضية محور الحركة في التركيب، فهي إذا تحدث حركة أفقية ورأسية اعتمادا على عنصر العدول، يقول الدكتور محمّد عبد المطلب: "وهكذا تظل الدلالة في النص مشدودة في اتجاه داخلي يلتقي في بؤرة واحدة تكون جملة الاعتراض هي محور الحركة....."[16].

6– الجملة الاعتراضية ذات خواص تعبيرية ترتبط بالمبدع تعبيرا عما في نفسه وبالمتلقي الذي يلتفت إلى ذلك من خلال هذه الجملة وهذا العدول وبالصياغة التي تعكس ذلك في حركة أفقية ورأسية معا.

7– الجملة الاعتراضية تعبير شائع في متن اللغة العربية، يقول ابن جني: "والاعتراض في شعر العرب ومنثورها كثير حسن دال على فصاحة المتكلم وقوة نفسه وامتداد نفسه، وقد رأيته في أشعار المحدثين، وهو في شعر إبراهيم بن المهدي أكثر منه في شعر غيره من المولدين"[17].

وقد رأينا أن الدكتور حواس بري قد و ل من خلال نتائجه إلى أن الاعتراض في القرآن الكريم قد تكرر بقدر لافت. بل ذهب الباحث سلامة جمعة إلى أنه تواتر في القرآن الكريم سبعا وتسعين وتسعمائة.

8– الجملة المعترضة لا تأتي إلا لفائدة ونكتة بلاغية: وهذا مما يتفق عليه، فما من تعريف إلا ويشير إلى هذا.

يقول الدكتور تمام حسان: "وللاعتراض وظيفة بلاغية مهمة هي المبادرة بإبلاغ السامع معنى لولا إبلاغه إياه في حينه لورد على الكلام بدونه ما لا يرد عليه معه"[18].

ويقول الدكتور عبد العزيز عتيق: "الاعتراض هو أن يؤتي في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين في المعنى، بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لفائدة غير دفع الإبهام، ومن هنا يفهم أن الإطناب بالاعتراض يؤتى به في الكلام لفائدة أو لغرض بقصد إليه البليغ"[19].

9– الجملة الاعتراضية يشار إليها في اللغة المكتوبة بعلامة ترقيم (– –).

وعلى العموم فإن المتتبع لتعاريف الجملة الاعتراضية يجدها تفرز خصائص جمة تنفرد بها أما الإعجاز ففي اللغة من عجز، والعجز نقيض الحزم، وعجز عن الأمر يعجز، والعجز: الضعف، والتعجيز: التثبيط، ومعنى الإعجاز: الفوت والسبق، وعجز عن الأمر: إذا قصر عنه.

وفي الا طلاح أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يخرج عن طوق البشر و يعجزهم عن معارضته. ولهذا اتصف القرآن بأنه معجز؛ لعجز البشر عن الإتيان بمثله في كامل مستوياته، وكان هذا دليل دق نبوة مُحَمَّد ﷺ.

في الإعجاز وعنا ره: لا يخفى على ذي لب أن مفهوم الإعجاز كان قائما وواردا من أول آية نزلت من القرآن الكريم {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ...}[20].

إن الوقوف على التركيب الشريف "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ" وحده كافيا لاستجلاء أسرار لا

تُحصى، هذا التركيب إيذان بمنهج جديد ينبغي أن يتبع، وإبطال للنداء باسم الأ نام أو غيرهم، ثم إن هذه الأفعال: اقرأ، خلق بها خروج وعدول عن القاعدة النحوية الزمنية : الماضي المضارع الأمر (المستقبل) إذ الزمنية غير محددة ولا محصورة ولا بداية لها ولا نهاية، وقل مثل هذا في الأمكنة.إن لفظة "علق" إشارة إلى ما ينطوي في أ ل خلق الإنسان من بديع الأطوار والصفات التي جعلته سلطان هذا العالم[21]، بله ما في الآيات من إعجاز أسلوبي، ألا ترى أن الآيات الخمس من السورة على قصرها أ ول الصفات الإلهية: فو ف الرب دل على الوجود والوحدانية بما تقتضيه المو ولية، وو ف: الخلق، والعلم، يقتضيان فات الأفعال، وو ف الأكرم يتضمن فات الكمال والتنزيه عن النقص.

وهكذا تأتي الجملة الاعتراضية لتضع بصماتها في أول آية بتركيب مو ولي "الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ"، ذلك أن "رَبُّكَ" مبتدأ خبره الجملة الفعلية "عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ". والتقدير "وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ" معلم الإنسان، والجملة "الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ" معترضة أي: إن الذي علم الناس الكتابة بالقلم والقراءة قادر على أن يعلمك القراءة والكتابة.

يقول الشيخ ابن عاشور: "وفي الاقتصار على أمر الرسول ﷺ، ثم إخباره بأن الله علم الإنسان بالقلم إيماء إلى استمرار فة الأمية للنبي ﷺ لأنها و ف مكمل لإعجاز القرآن"[22] .

وينبغي أن نعلم أن القرآن الكريم يشير إلى هذا الإعجاز والذي يؤ له التركيب الاعتراضي، يقول تعالى: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}[23] الجملة الشريفة: "مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ" جملة معترضة لبيان سعة علم الله تعالى وعظيم قدرته، "أي ما تركنا وما أغفلنا في القرآن شيئا يحتاج الناس إليه في أمورهم إلا بيناه"[24]. على اختلاف في المراد بالكتاب.

وفي ضوء هذه الآية يقول مالك بن نبي: "إن رحابة الموضوعات القرآنية وتنوعها لشيء فريد طبقا لتعبير القرآن نفسه"[25].

ويضيف قائلا: "فهو يبدأ أحاديثه –أي القرآن الكريم– من ذرة الوجود المستودعة في باطن الصخرة والمستقرة في أعماق البحار: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي خْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}[26]، إلى

النجم الذي يسبح في فلكه نحو مستقره المعلوم، {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[27]، وهو يتقصى أبعد الجوانب المظلمة في القلب الإنساني، فيتغلغل في نفس المؤمن والكافر بنظرة تلمس أدق الانفعالات في هذه النفس، وهو يتجه إلى ماضي الإنسانية البعيد ونحو مستقبلها، كما يعلمها واجبات الحياة، وهو يرسم لوحة أخاذة لمشهد الحضارات المتتابعة ثم يدعونا إلى أن نتأمله لنفيد من عواقبه عظة واعتبارا..."[28].

وإلى مثل هذا يسوقنا الدكتور زغلول النجار وهو يقول: "تعدد أوجه الإعجاز في كتاب الله بتعداد جوانب النظر فيه، فكل حرف من حروفه، وكل كلمة من كلماته، وكل آية من آياته فيها إعجاز لفظي وبياني ودلالي وكل مجموعة من الآيات وكل سورة من السور – طالت أو قصرت– شهدت لكتاب الله تعالى بأنه معجز بما فيها من قواعد عقدية أو أوامر تعبدية، أو قيم أخلاقية، أو ضوابط سلوكية، أو أحداث تاريخية، أو إشارات علمية إلى شيء من أشياء هذا الكون الفسيح وما فيه من ظواهر وسنن وكائنات، فكل تشريع وكل قصة وكل واقعة تاريخية وكل وسيلة تربوية، ويتميز عن كل ياغة إنسانية، مما يشهد للقرآن الكريم بالتفرد، كما يشهد بعجز الإنسان عن الإتيان بشيء من مثله"[29].

نعم لقد كانت آيات الله البيِّنات أشعة يتألق فيها الوحي الإلهي وهي تبعث بنورها وهديها إلى الناس أجمعين، فإذا بصوت القرآن ينطلق ليكون المعجزة اللغوية الأدبية الخالدة في لسان العرب، وما إن ظهر حتى بهر، وبدأت بظهوره الحركة الفكرية في حياة المسلمين لتدب فيها مظاهر الحيوية والقوة والنشاط.

فقد اقتضت حكمة الله أن توج آخر رسالاته إلى هذا العالم بالقرآن الكريم ليكون منهاجا كاملا للحياة ومعجزا في كل وجه من وجوهه، وهو رسالة مفتوحة للأمم والأجيال كلها، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة للبعيد والقريب أيضا، وظل هكذا وسيظل كتابا مفتوحا ومنهجا واضحا يثبت للعالم أجمع بأنه ما اتخذه أهل زمان إماما لهم إلا وقد ولي حاجتهم كاملة، وقادهم في حياتهم كلها إلى خير ما تتطلع إليه الأمم والشعوب.

يقول لاح الدين عبد التواب: "إن هذا القرآن يعطي الإنسان بقدر ما يعطيه، ويفتح عليه في كل مرة بإشعاعات وإشراقات وإيحاءات بقدر ما يفتح له نفسه، وهو يبدو له في كل مرة جديدا كأنه يتلقاه اللحظة، وكأنه لم يقرأه ولم يسمعه من قبل... وإن في هذا القرآن سرا خا ا يشعر به كل من يواجه نصو ه ابتداء قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز

فيها... ويشعر أن هناك شيئا ما وراء المعاني... ولكن يصعب تحديد مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أو هو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصورة أو الظلال التي تشعها ؟ أهو الإيقاع المتميز عن سائر فنون القول؟، أهي هذه العنا ر كلها مجتمعة؟[30].

ولعل هذا ما أدى ببنت الشاطئ إلى القول: "من إعجاز القرآن أن يظل شغلة الدارسين العلماء جيلا بعد جيل، ثم يبقى أبدا رحب المدى سخي المورد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية امتد الأفق بعيدا وراء كل مطمح عاليا يفوق طاق الدارسين"[31].

لقد تباينت الأقوال والآراء في وجوه إعجاز القرآن الكريم بين موسع ومضيق، ومطلق ومقيد غير أن هناك إجماعا على أن الإعجاز البياني هو أساس كل إعجاز قرآني، ففيه تستكن كل وجوه إعجازه، مابين غيبي، وعلمي وشرعي وإعلامي، وعلى أساس ما ندرك من تراكيبه ومفرداته يكون تصورنا لآيات الله في مضمونها، يقول تعالى: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[32]، يقول عبد الصبور شاهين: "فالآية تقرر أن الله سبحانه وتعالى جاء عباده بكتاب فصله على علم، أي بيناه على علم بمحتواه ومضمونه"[33] فالقرآن الكريم إذا عجز عن الإتيان بمثله أساطين البلاغة والفصاحة والبيان، فانبهروا ببيانه المتفرد في حروفه ومقاطعه وألفاظه وفي آياته وسوره، تأملوه في كل ذلك فلم يجدوا كلمة نابية عن مكانها، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، ونظاما والتئاما وإحكاما عجز عنه الناس، وقد غدا مصدرا لكثير من الدراسات اللغوية والأدبية والإسلامية،فهو يمثل اللغة العربية في أدق مستوياتها وأعلاها، يقول نور الدين عتر: "إننا كلما قرأنا القرآن الكريم لفت نظرنا بعض الخصائص الصرفية إلى جانب الخصائص الصوتية والتركيبية"[34].

ذلك أن خير ما تو ف به الجملة في القرآن الكريم أنها بناء أحكمت لبناته ونسقت أدق تنسيق، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبؤ عن موضعها، أو لا تتعايش مع أخواتها، حتى ار من العسير بل من المستحيل أن تغير كلمة بأخرى أو تستغني فيها عن لفظ، أو تزيد فيها شيئا، و ار قصارى أمر من يريد معارضة جملة من القرآن أن يرجع بعد لأي إليها كأنما لم يخلق الله لأداء تلك المعاني غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء، جاء في إعجاز القرآن: "وإنك لتحار إذا تأملت تركيب القرآن، ونظم كلماته في الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها، وتقعد بك العبارة إذا أنت حاولت أن تمضي في و فه، حتى لا ترى في اللغة كلها أدل على غرضك وأجمع لما في نفسك، وأبين لهذه الحقيقة، غير كلمة الإعجاز ...

فترى اللفظ قارا في موضعه لأنه الأليق في النظم، ثم إنه مع ذلك الأوسع في المعنى، ومع ذلك الأقوى في الدلالة، ومع ذلك الأحكم في الإبانة، ومع ذلك الأبدع في وجوه البلاغة، ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية مما يتقدمه أو يترادف عليه..."[35].

إن المتأمل في بنية القرآن الكريم يلفيها بنية تتكون أساسا من:

1. انسجام العنا ر الأساسية مع بعضها وجمالها.

2. جمال المعنى ونبل المقصد.

3. العنا ر الأساسية هي الكلمات القرآنية والتي جاء توليفها من أ وات متناسقة، خفيفة[36] سنجد له تناسبا وتناسقا مع السياق حتى إنك لا تجد ما تستبدله به إلا هو لأنه الأ لح والأقدر والأنسب لأداء المعنى، ثم إن هذه الكلمات القرآنية تجتمع لتؤلف الجملة القرآنية، ومنها الجملة القرآنية الاعتراضية، والتي نحسبها ورة على غاية من الروعة والجمال، "وهي منْزع بلاغي أ يل"[37] له دلالاته في توضيح المعنى المراد التركيز عليه أو العناية به أو تخصيصه، لأن التركيب الاعتراضي إذا وقع موقعه المناسب في السياق، فإنه يكون من مقتضيات النظم ومتطلبات المقام ذلك لأن التركيب الاعتراضي كثيرا ما يقع مؤكدا لمفهوم الكلام الذي وقع فيه، ومقررا له في نفوس السامعين من خلال ظاهرة التصوير القرآني، "قاعدة التعبير في النص الشريف، والأداة المفضلة فيه"[38].

ونقف على هذا في كل أوجه الإعجاز: الإعجاز الغيبي بكل مستوياته، الإعجاز التشريعي، الإعجاز العلمي والإعجاز البلاغي والأسلوبي وهو الوجه الأعظم إذ به كان القرآن قرآنا.

البسط: لنتأمل معا التركيب الشريف والذي ورد في سياق القصص: {وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ}[39] إنه موقف تصويري عجيب، كان التركيب الاعتراضي به بؤرة ومركز ثقل "وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ" حال معترضة أبانت عن موقف الأبوة، وقد تدخلت الحكمة الإلهية لتُذَكِّر نوحا وهو الأب ولكنه النبي، بالمحك الذي ينبغي أن يعتمد ويحفظ وبخا ة من القدوة، هذا المشهد الذي به الأحداث والشخوص والحوار والحركة، ذلك هو التصوير.

ولنتأمل قوله تعالى: {واللهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ}[40] تركيب معترض بين جملتين من قصة

واحدة: "يَجْعَلُونَ أَ ْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ" و "يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ"، ظلمات، برق، رعد موقف مهول شديد ينعكس في كل لفظة من الآيات ليأتي التركيب الاعتراضي: "واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ" ليؤكد أنه لا نجاة لهؤلاء ولا مهرب، فقد أطالتهم قدرة الله بالهلاك من كل ناحية .

ففي الجملة الاعتراضية الأولى إشارة إلى تمرد البنوة العاقة كادت أن تجر معها الأبوَّة الصالحة التي تمثل المنهج جاء في تصوير قصصي رائع.

والجملة الاعتراضية الثانية تأتي لتقر قدرة الله وإحاطته بكل شيء في مشهد تصويري أيضا.

لنتوقف عند هذا ولنعود إليه في التحليل بتفا يله الدقيقة وحسبنا أننا نبهنا إلى إسهام التركيب الاعتراضي في هذا الإعجاز بكل أوجهه سواء التي مثلناها أو التي ليس بعد.

لنعود فنقول، إن البحث في قضية الإعجاز ليس في حقيقته إلا بحثا عن السمات الخا ة بالنص الذي ينفرد بها عن النصوص الأخرى وتجعله يبزها ويعلو عليها، ذلك ما نسعى إلى مباحثته في هذا الموضوع من خلال التحليل البلاغي الأسلوبي، متبنين منهج علماء العربية في التحليل، كما عبر عنه ابن خلدون وعلق عليه الدكتور مُحَمَّد الصغير بناني: "النص عبارة عن شبكة من الخيوط المتداخلة الممتدة طولا وعرضا، سطحا وعمقا مثل خيوط السدى والنير في المنسج"[41] وهي خمس شبكات:

1) شبكة المفردات اللغوية.
2) شبكة التراكيب النحوية.
3) شبكة التراكيب البلاغية.
4) شبكة الإيقاع والموسيقى.
5) شبكة التراكيب الأسلوبية.

لنبدأ في كل جملة اعتراضية بإبراز أ ل المعنى، وهو الرجوع بالتركيب إلى معناه الأول المجرد عن الوجوه البلاغية والمزايا الفنية، برد المعنى إلى أدنى ما يمكن أن يؤول إليه، أي الرجوع به إلى ما يسميه السكاكي : "متعارف الأوساط"[42] المعنى المعجمي كما يعبر عنه بعض المحدثين.

وقبل أن نلج التحليل نشير: إن النص القرآني نص إلهي منزه عن كل نقص، والخوض فيه مغامرة علمية حقيقية،ولكنها جميلة رائعة ومثيرة لطيفة، ولا يسعنا إلا أن نقتدي بأستاذنا عبد المالك مرتاض لنردد ما قال: "فنحن لا نحاول – ونحن نحلل ونقف على اللطائف والأسرار القرآنية من خلال إبراز إسهام التركيب الاعتراضي في إعجازية النص الشريف – إخضاع النص القرآني لقواعد الإعراب ولا لضوابط البلاغة فهو يند عن ضوابط هذا وذاك، لأنه أعلى من النحو، وأشرف من الإعراب وأسمى من تخريجات النحاة، لأنه فريد نسجه في الكلام وخارق لعادة البلاغة "[43].

بحسب أوجه الإعجاز قسمنا البحث إلى عنا ر أربعة:

الإعجاز الغيبي، الإعجاز التشريعي، الإعجاز العلمي، الإعجاز البلاغي الأسلوبي (البياني) الذي لا تخلو منه آية في كتاب الله.

الإعجاز الغيبي: ومن الآيات التي تم اختيارها في ذلك:

يقول الله سبحانه وتعالى: {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ َادِقِينَ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}[44].

أولا: أ ل المعنى "وَلَن تَفْعَلُواْ" الله سبحانه يخاطب الناس، يقول لهم: لن تقدروا في المستقبل أيضا كما هو في الحاضر على الإتيان بمثل القرآن الكريم.

ثانيا: شبكة المفردات اللغوية: إن التركيب اللغوي سهل بسيط، ألفاظه ومعانيه في متناول القارئ، غير أنه يمكن التساؤل عن: لم عبر الله تعالى بالفعل لا بالإتيان؟ لنحاول الإجابة عن ذلك في مستوى الدراسة الأسلوبية.

ثالثا: شبكة التراكيب النحوية: ونعني بها المعاني الناشئة عن التراكيب السطحية بصرف النظر عن خصو ياتها البلاغية.

"لَن تَفْعَلُواْ" به ثلاثة مقومات، وسط (أساس) وطرفان سابقة ولاحقة.

الوسط الفعل (فعل) أضيفت له التاء (تفعل) لتخرج من دائرة الصيغة الأ ل إلى مصطلح (المضارع) وليدل على المخاطب فالتاء تحمل دلالتين المضارع لأنها من حروف

(أنيت)، ودلالة المخاطب، فالهمزة للمتكلم، والياء للغائب، والتاء للمخاطب.

واللاحقة (الواو) والتي أخلصت الفعل لجماعة المخاطبين.

أما السابقة فهو مقوم (لن) من حروف النفي، يدخل على المضارع فينقله من الرفع إلى النصب، وهنا (تفعلوا) منصوب بحذف النون.

فالتركيب الاعتراضي جاء في شكل جملة فعلية مضارعية.

منفية = أداة نفي "لن" + فعل مضارع "يفعل" + فاعل "واو الجماعة"، والمفعول محذوف. في كل هذا يمكن أن نقف على إشكاليات لنجيب عنها في الشبكة اللاحقة وفي الدراسة الأسلوبية.

رابعا: شبكة التراكيب البلاغية: لنتخير منها الوجوه المعنوية، ولا غرو في ذلك إذ هي امتداد للشبكة النحوية، ذلك أن التراكيب النحوية قد تكون وحدها كافية للدلالة على المزايا الفنية، وما يدرس في بعض أبواب علم المعاني هو في الحقيقة دراسة نحوية[45].

"وَلَن تَفْعَلُواْ" خبر منفي غرضه تأكيد التقرير، وهنا لابد من ربط الجملة الاعتراضية بالسياق، فهي جملة اعتراضية بين الشرط: " فإن لم تفعلوا " وبين جزائه "فاتقوا النار..." .ولن تنفي المضارع نفيا مؤكدا وتخلصه للاستقبال[46] والآية هنا مقصودة لذاتها لما فيها من تقوية الدليل وتقرير عجز الناس عن الإتيان بمثل القرآن. فالجملة المعترضة إذا واردة في سياق التحدي.

إن الله تعالى يدعوهم أن يستعينوا بمن شاءوا، فقد جاءت الإشارة إلى عجز البشر في الحاضر والمستقبل: {لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[47]وظهيرا أي معينا، جاء في مختصر ابن كثير: "تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم ومع هذا عجزوا، و"لن" لنفي التأبيد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبدا، وهذا أيضا معجزة أخرى وهو أنه أخبر –سبحانه– خبرا جازما قاطعا، غير قاف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا..."[48]

فالغرض من التركيب الاعتراضي: التحدي، والاستفزاز، إلى جانب التقرير والتأكيد. فانظر كيف اجتمعت كل الأغراض في هذا التركيب القصير.

خامسا: شبكة الدراسات الأسلوبية: وما الدراسة الأسلوبية إلا امتداد للدراسة البلاغية وتعميق لها على سبيل الشمولية في اكتشاف الجمالية والفنية، وفيها تتجلى لنا نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني.

"وَلَن تَفْعَلُواْ" أسلوبية التركيب الاعتراضي نحللها بالتركيز على عنصرين أساسيين في الأسلوب: الاختيار والانزياح دون مراعاة للترتيب في ذلك.

إن المستقري لجملة الاعتراض يجد أن الله قد ا طفى "لن" دون "لا" مثلا، وأول ما يمكن أن يقال على مستوى الدلالة أن: لن مقطع متوسط مقفل على عكس لا مقطع متوسط مفتوح، والمقطع المتوسط المقفول يدل على التوقف والعجز وذلك مراد.

ثم إن قوله: لن تفعلوا، ليس كقوله لا تفعلون، حذف وإثبات للنون والحذف فيه أحيانا معنى العجز والقصر. ذلك ما نجده في حذف المفعول على الرغم من أنه جاء في كثير من آي القرآن محذوفا لوجود ما يدل عليه .

جاء في التحرير والتنوير: "لم تفعل ذلك... وهذا حذف شائع في كلامهم – أي العرب – فيقولون: فإن فعلت، أو فإن لم تفعل..."[49] .

والتعبير الاعتراضي جاء فا لا بين الشرط "فإن لم تفعلوا" فعبر الحق سبحانه بإن دون إذا، وإِنْ شأنها في الكلام عدم اليقين بوقوع الشرط، مع أن عدم فعلهم هو الأرجح بقرينه مقام التحدي والتعجيز وذلك ما عبرت عنه فعلا الجملة الاعتراضية "لن تفعلوا" ، "لأن القصد إظهار هذا الشرط في ورة النادر مبالغه في توفير دواعيهم على المعارضة بطريق الملاينة والتحريض"[50] .

ثم إننا نقول: إن حرف الشرط "إن" للتردد فقطع هذا التردد بالجملة الاعتراضية المؤكدة للمستقبل.

ورد التعبير "تفعلوا"، دون "تأتوا"، لمناسبة فأتوا بسورة...، ذلك أن الفعل باستعمال الوسائل الممكنة المعتادة على اختلاف الإتيان.

ثم إن في لفظ تفعلوا من الإيجاز ما ليس في لفظ لن تأتوا، يقول في تفسير النسفي: "عبر عن الإتيان بالفعل لأنه من الأفعال، والفائدة فيه أنه جرى مجرى الكتابة التي تعطيك

اختصارا ..."[51].

فتأمل معنا الآن الآية في الجملة الاعتراضية وما حدث فيها من اختيار وانزياح:

مقوم "لن" عدول بـ: "لن" بدل "لا"، يقول ماحب الكشاف: "لا ولن أختان في نفي المستقبل إلا أن في "لن" توكيدا وتشديدا، تقول لصاحبك لا أقيم غدا فإن أنكر عليك قلت: لن أقيم غدا"[52] .

"لن تفعلوا" عدول عن الإثبات إلى النفي، وذلك مقصود بذاته.

عدول عن المؤقت إلى التأبيد، "تفعلوا" فعل مضارع للحاضر خصصته لن للمستقبل المتجدد (المؤبد).

عدول عن المعلوم إلى المجهول، لم يأتوا بمثل القرآن ومعلوم ولن يأتوا وهنا مجهول ومتجدد.

عدول عن الزمكانية إلى سلب هذه الزمكانية التي تكون في الفعل والاسم، فالفعل يتجاوز الأزمنة التي قررها النحاة والفاعل يتجاوز ذلك أيضا ويتجاوز المكان.

عدول عن المفرد إلى الجمع، فالكل جن وإنس عاجز عن الإتيان بمثل القرآن.

عدول عن الحركة إلى السكون المتمثل في الاستسلام والإيمان بالقرآن من عند الله وليس لكائن أن يأتي بمثله.

عدول عن الإخفاء إلى الظهور، ذلك ما يأتي تحت السطور، ومن مقامات التخلية والتحلية والاستجلاء والكشف.

عدول على مستوى الغرض البلاغي، تحد مطلق لبيان العجز التام وإظهار القدرة المطلقة.

جاء في النبإ العظيم: "... فانظر أي إلهاب، وأي استفزاز، لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله: "ولن تفعلوا" ثم هددهم بالنار ثم سواهم بالحجارة، فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما متوا عن منافسته ... وقد أ اب منهم موضع عزتهم وفخرهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سلما يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طول شامخ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا"[53] .

التركيب الاعتراضي "ولن تفعلوا" من أكبر المعجزات في القرآن، معجزة من وجوه منها:

1) أثبتت أن القرآن الكريم لن يعارض، ودلت على إثبات النبوة.

2) معجزة من نوع الإخبار عن الغيب، مستمر على تعاقب السنين.

3) لا يخفى على ذي لب ما فيها من إعجاز لغوي بياني.

فلا غرو أن تلفي الرافعي يقول: "... ثم قُرن التحدي بالتأنيب والتقريع، ثم استفزهم بعد ذلك جملة واحدة كما يُنفخ الرماد الهامد، فقال: " وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة ... فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار..."، فقطع لهم لن تفعلوا، وهي كلمة يستحيل أن تكون إلا من عند الله، ولا يقولها عربي من العرب أبدا، وقد سمعوها واستقرت فيهم ودارت على الألسنة، وعرفوا أنها تنفي عنهم الدهر نفيا وتعجزهم آخر الأبد، فما فعلوا ولا طمعوا"[54]، وجاء في الجامع لإعراب القرآن: "ولن تفعلوا" جملة معترضة بين الشرط وجزأيه فيها نوع من الإعجاز، ودليل على إثبات النبوة، لما فيها من إخبار بغيب لا يعلمه إلا الله ..."[55]، لئن قال الشواء فيها نوع من الإعجاز، نقول بل فيها كل الإعجاز. علما بأن هذا التحدي، يمثل أقل من 1 % من القرآن باعتبار أن القرآن يحتوي على **114** سورة[56]. أبعد هذا شك في إعجاز هذه الآيات الشريفة؟!

يقول الله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[57].

أولا: أ ل المعنى: أي أن مغفرة الذنوب والمؤاخذة عليها تقتصر على الله وحده دون سواه وهو متصف بذلك، ومن أسمائه الحسنى الغفار، بصفة المبالغة الدالة على الكمال.

ثانيا: شبكة المفردات اللغوية: السجل اللغوي للتركيب الاعتراضي يمكن رده إلى متعارف الأوساط، وهذه المفردات وإن كانت في ظاهرها بسيطة إلا أنها من النوع الذي يسابق فيه "اللفظ المعنى والمعنى اللفظ" فقد يتمثل القارئ المعنى العام حتى وإن خفيت عنه جوانب منه، وهكذا يتشكل المعنى في ذهن القارئ ابتداء من المقوم الأول حتى إذا كان هو ذاته مصاب بالغموض كما هو الشأن في "من"، والتي لا يتجلى معناها إلا بشيء من التأمل والعمق، وبخا ة حينما تعاضدت مع الاستثناء، وهذا دور الشبكة الموالية.

ثالثا: شبكة التراكيب النحوية: "وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ" جملة اسمية "من" مبتدأ، خبره الجملة الفعلية يغفر الذنوب الله. وبهذا وجدنا التركيب الخبري الفعلي فيه تقديم للمفعول على الفاعل، أي يغفر الله الذنوب. ولكن كيف يتلاءم الاستفهام مع الاستثناء، والمستثنى يكون منصوبا على الاستثناء فكيف جاء هنا مرفوعا. تلكم ما نتكشف في شبكة التراكيب البلاغية والدراسة الأسلوبية.

رابعا: شبكة التراكيب البلاغية: "وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ"، "من" اسم للعاقل أشرب معنى النفي، فتصبح الجملة: "لا يغفر الذنوب إلا الله" أي أننا أمام استثناء مفرغ تكون فيه أداة الاستثناء ملغاة، وبهذا ننتقل من الاستثناء إلى أسلوب القصر طريقة النفي والاستثناء، تحقق بالدالين المتقطعين لا وإلا، فغفران الذنوب لا يكون إلا من الله، فة خا ة بالله سبحانه، ومن اسم الاستفهام هي المستعملة عادة في التركيب القصري مع إلا وهي التي أشربت معنى النفي.

هكذا فإن الجملة الاعتراضية "وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ" جاءت في أسلوب القصر.

وأبلغ ما في القصر أنه نفي وإثبات في الوقت نفسه، وأ ل الجملة يغفر الله الذنوب، في هذا التركيب الاحتمالي يغفر الله الذنوب، ويمكن لغيره أن يتصف بذلك، ولما حصر الفعل في الفاعل قدم المفعول، أي لا يغفرها أحد سواه[58].

خامسا: شبكة الدراسة الأسلوبية: ذلك أننا نتجاوز التركيب الاعتراضي "وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ" إلى السياق، هذه الجملة جاءت معترضة بين المتعاطفين، بين فاستغفروا لذنوبهم وبين لم يصروا، أي أن الاعتراض جاء في سياق المبادرة بالتوبة والرجوع إلى الله مالك الصفح والعفو.

والتركيب الاعتراضي جاء في ثوب إنشاء (استفهام) ولكنه في جوهره خبر ذلك أول تنبيه على مستوى الخطية الأفقية. وفيه تطييب نفوس العباد وتنشيطهم للتوبة ولبيان أن الذنوب وإن جلت، فإن عفو الله أجل ورحمته أوسع.

هذه الجملة اسمية تدل على الثبوت دلالة على أن الله تعالى يغفر الذنوب دوما تفرعت عن الجملة الاسمية جملة فعلية "يغفر الذنوب" للدلالة على تجديد المغفرة وأن باب التوبة مفتوح، فكلما أذنب العبد وآب إلى ربه وجده غفورا رحيما، جاء في الظلال: "إن الله –

سبحانه– لا يدعو الناس إلى السماحة في ما بينهم، حتى يطلعهم على جانب من سماحته – سبحانه وتعالى– معهم ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا"[59]، فما أحوجنا إلى هذه المعاني!.

فالتركيب الاعتراضي جاء ليأخذ بيد المذنب ويدله على طريق النجاة، يعيد له الأمل، وهو عطف من الخالق العليم ليحلق بالإنسان إلى الأفق من جديد وليأخذ بيده إلى مراقي الصعود.

ويمثل لذلك سيد قطب بقوله: "إن طفلك الذي يخطئ ويعرف أن السوط لا سواه – في الدار – سيروح آبقا شاردا لا يثوب إلى الدار أبدا، فأما إذا كان يعلم أن إلى جانب السوط يدا حانية، تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب، وتقبل عذره، حين يستغفر من الخطيئة...فإنه سيعود"[60].

إنه منهج تربوي ساقه لنا الله من خلال هذه الآيات والتي نحسب أن التركيب الاعتراضي بؤرة ذلك.

ومما وجدناه في الجملة الاعتراضية هذا الاختيار والعدول: عدول عن لا إلى من، ذلك أن لا كما أسلفنا مقطع طويل مفتوح، ومَن مقطع قصير مغلق والحال أن التوبة ندم ورجوع وتوقف عن اقتراف الذنوب، ثم إن اعتماد مَن لتكون بداية الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام، هذا الثبوت يمتزج بالتجدد فالمغفرة ثابتة لله سبحانه وحده وباب التوبة مفتوح، كما أن مَن وتيها متوسطان بين الشدة والرخاوة ويجمع بينهما أن مجرى الهواء مع كل من الميم والنون هو التجويف الأنفي وحده[61] (وجود غنة). هذا التوسط تأخذ منه الجملة في دلالتها، وبخا ة العذوبة والخفة على مستوى الإيقاع دلالة على الترغيب هذا ما لا يوجد في "لا" وبخا ة حينما تقترن بالياء قراءة.

وأن من يتأمل التركيب الاعتراضي يلفي ذلك الإيجاز البليغ: "وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ" كبنية سطحية نجد البنية العميقة "يغفر الذنوب الله" وهذا معناه: يغفر الذنوب الله لا يغفر الذنوب غير الله. الجملتان عبرت عنهما الجملة الاعتراضية بهذا القصر. أضف إلى ذلك: "وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ" بهذا حذف وهو: العدول عن الإضافة يشير إلى الذات المذنبة: أي " ومن يغفر ذنوب المذنبين إلا الله. نرى في التعبير بالذنوب دلالة على غفران كل الذنوب على مستوى الكم والنوع إلا ما استثنته الآية: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ

مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء}[62]، ذلك فضل من الله لعباده. وفيه دلالة على أن الغفران يشمل كل من أذنب دون استثناء، وذلك في إطار سياق الآية: أي المتقين، وقد عبر على ذلك ابن عاشور، يقول: "... إذا كان عطف فريق آخر، فهم غير المتقين الكاملين، بل هم فريق من المتقين خلطوا عملا الحا وآخر سيئا، وإن كان عطف فات، فهو تفضيل آخر لحال المتقين بأن ذكر أولا حال كمالهم، وذكر بعده حال تداركهم ونقائصهم"[63].

ففي التركيب إعجاز:

- غيبي إذ ليس بوسع أحد أن يقرر غفرانه للذنوب، ما عدا الله سبحانه.

- أسلوبي لما رأينا فيه من عدول واختيار وإيجاز على الرغم من قصره، وما فيه من تربية بالحث على مبادرة العباد إلى استغفار الله عقب الذنب إلى جانب ذلك به تعريض للمشركين الذين يتخذون أ نامهم شفعاء لهم عند الله، وبالنصارى في زعمهم أن عيسى عليه السلام رفع الخطايا عن بني آدم ببلية لبه، وألفينا في وقتنا هذا من يوزع كوك الغفران.

كما وجدنا مثل هذا الإعجاز الغيبي متناثرا في النص القرآني نذكر من ذلك:

{الم، غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}[64].

اشتمل النص على خبرين خطرين:[65]

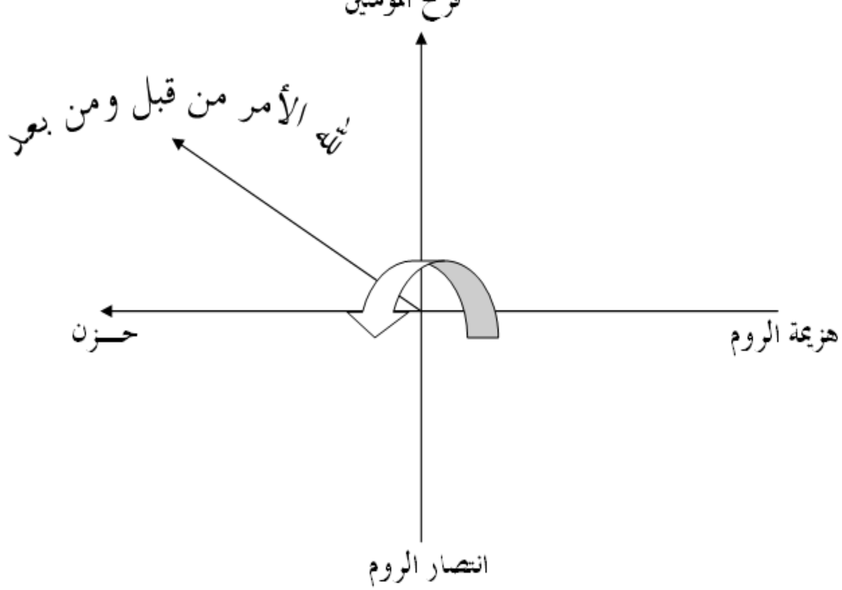
1) انتصار الروم على الفرس في فترة وجيزة جدا بالنسبة لتغير ميزان القوة بين الدول، ولاسيما في ذلك العصر، وقد تحقق ذلك في سبع سنين .

2) احتقان ذلك بتغير ميزان القوة لمصلحة المسلمين وانتصارهم على المشركين في موقعة بدر الكبرى، فرح المؤمنون بنصر الله لهم، كما فرحوا بنصر الروم، وهم أهل كتاب على الفرس عبدة النار والأ نام.

فأخبر القرآن عن عودة النصر للروم بعد هزيمتهم قبل حدوث هذا النصر، وهذا يدخل في النبوءات التاريخية[66]، فهي في الغيب الذي لا يعلمه إلا خالق الكون سبحانه ذلك ما أثبتته الجملة الاعتراضية: "لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ" ذلك التركيب القصري،

فالنصر من الله وحده لا غيره. في السابق واللاحق على امتداد الزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ذلك ما يؤكد التعبير بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت، فما أحوجنا اليوم إلى هذه الثقة بالله، بل إلى العمل لنكون أهلا لهذه الثقة وللنصر على الأعداء المتربصين بنا في كل مكان، إذ لم يكن نصرا استحقاقيا، يكون نصرا تفضليا.

يمكن أن نمثل لهذه الآية الكريمة لنتبين أن محورها ومركز الثقل فيها الجملة الاعتراضية:



تنبأ القرآن بنصر الروم منذ سبع سنين قبل حدوثه، فحدث، ذلك لأن الأمر كله لله وحده.

{وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ، فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[67].

"وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ" جملة اعتراضية بين المتعاطفين، مكونة من مبتدأ وخبر، وهناك بعض العلاقات السياقية في الجملة الشريفة المتصلة بالتركيب النحوي: فإن "ما" اسم مو ول مفعول به لاسم الفاعل، والاسم المو ول يتطلب لة، جاءت هنا مكونة من "كان واسمها وخبرها" كنتم تكتمون، والتعبير "ما" للدلالة على العموم كل ما كتمتم وتكتمون حالا ومستقبلا وأيا كان المكتوم، ثم عدل عن الفعل إلى اسم الفاعل للفاعلية والتجدد وقطع الزمنية فقدرة الله لا يحدها زمن ولا مكان.

وفائدة الجملة الاعتراضية التقرير في نفوس السامعين بأن تدافع بني إسرائيل في قتل النفس ومحاولة إخفاء القاتل ليس بنافع لهم[68]، لأن الله تعالى مظهره وكاشفه وذلك حصر على الله، لأن تقدم المعمول "الله" على عامله الجملة الفعلية معناه الله مخرج لا غيره. سبحانه لا تخفاه خافية، وهذا إكراما لموسى عليه السلام ورحمة بالأمة لئلا لا تضل. لنتقي الله ونعتبر. الجملة الاعتراضية تدل على سعة علم الله مهما خفيت الأشياء ودقت، وقيمة الاعتراض لم تظهر من خلال الموضوع فقط (الإعجاز الغيبي)، وإنما ظهرت كذلك من النظم الذي جاءت عليه الجملة حيث ـدرت بلفظ ليشعر أنه تعالى محيط بكل الأمور ومطلع على كل شيء "يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور"، فسبحان من أحيى الميت ببعض الميت.

حسبنا في الإعجاز الغيبي ولنطرق بقية عنا ـر الإعجاز في بحث آخر تال إن شاء الله تعالى.

خا مة:

من النتائج التي وقفنا عليها في موضوعنا هذا نذكر:

– الجملة الاعتراضية طالت موضوعات النص الشريف ومقا ـد الشرع وبخا ـة ما يتعلق بأمور العقيدة .

– الجملة الاعتراضية تجلت بنسبة لافتة في موضوعات العقيدة، ذلك أن العقيدة تحتاج إلى شيء من الترسيخ و التثبيت.

– الجملة الاعتراضية تأتي للتأكيد والتقرير ولها أغراض أخرى يقررها السياق، تدرك بالذوق الرفيع .

– الجملة الاعتراضية تغيير عدولي يطرأ على الجملة لنكتة، وبدونها لا تظهر هذه الفائدة.

– الجملة الاعتراضية تمنح النص الشريف كثيرا من عنا ـر قوته كناحية معنوية إعجازية، ففي اللحظة التي يتم فيها تدخل الجملة الاعتراضية يرتقي النص إلى أعلى درجات القوة، وبحذفها يخسر النص الكثير من قوته، وما كان لها أن ترد إلا بهذه القوة التي أرادها الله لها.

– الجملة الاعتراضية أسهمت بشكل لافت في إبراز الإعجاز ، بخا ـة منه الغيبي.

الـهوامش

[1] معجم العين، الخليل، (مادة عرض)، ص: **271/1–272**، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، د.ط، دار مكتبة الهلال.

[2] مختار الصحاح، الرازي،(مادة عرض)، ص: **425**، د.ط، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان. **1981/1401**.

[3] سان العرب، ابن منظور، ص: **165/7**، ط: **03**،(مادة عرض)، د.ط، دار ادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، **2004** .

[4] نفسه، ص: **165/7**، وينظر الإمام البخاري، ص: **157–159**، رقم الحديث: **687**، المكتبة الثقافية بيروت.

[5] ينظر، المعجم الوجيز، ص: **410**، (مادة عرض)، د.ط، مجمع اللغة العربية، القاهرة .

[6] الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، شرح وتعليق : خفاجي، د.ط، دار الكتاب لبنان، **1998**، ص: **214/3**.

[7] البيان في روائع القرآن، تمام حسان، ص: **115/1–116**، ط:**01**، **1993/1413**، عالم الكتب، القاهرة.

[8] المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، السجلماسي، ص: **148–149**، تح: علال الغازي، ط: **01**، **1980/1401**، مكتبة المعارف الرياض.

[9] مراجعات في أ ول الدرس البلاغي، مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى، ص: **127**، ط: **01**، **2005/1426**، مكتبة وهبة، القاهرة.

[10] جدلية الإفراد والتركيب، مُحَمَّد عبد المطلب، ص: **167**، ط: **01**، **1995**، شركة لونجمان، المصرية العالمية، للنشر.

[11] النحو العربي (شواهد ومقدمات)، أحمد ماهر البقري، ص: **161–162**، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة للنشر والتوزيع، القاهرة، **1988**.

[12] الاعتراض في القرآن الكريم، سلامة جمعة، ص: **03–04**، (رسالة ماجستير)، جامعة الأزهر، **1993/1413**.

[13] ينظر، فن البلاغة، عبد القادر حسين، ص: **179** وما بعدها، د.ط، عالم الكتب، القاهرة.

[14] ينظر، من أسرار البلاغة في القرآن، محمود السيد شيخون، ص: **04** و **18**، سلسلة إسلاميات، العدد: **86**، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر، القاهرة.

[15] ينظر، مبادئ اللسانيات، أحمد مُحَمَّد قدور، ص: **225**، ط: **01**،**1999/1419**، دار الفكر المعا ر، بيروت.

[16] جدلية الإفراد والتركيب، سابق، ص: **165** و **181** .

[17] الخصائص، ابن جني، تح: محمّد علي النجار، ص: **289/1**، د.ط، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، **1957**.

[18] البيان في روائع القرآن، سابق، ص: **386** .

[19] في البلاغة العربية، عبد العزيز عتيق، ص: **212** وما بعدها، د.ط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، **1984/1405**.

[20] سورة العلق، الآية: من **01** إلى آخر السورة.

[21] يرجع في هذا إلى كتب الإعجاز العلمي وبخا ة ما تعلق بخلق الإنسان.

[22] ينظر تفسير التحرير والتنوير، محمّد الطاهر بن عاشور، ص: **44/30**، د. ط، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

[23] سورة الأنعام، الآية: **38**

[24] ينظر فوة التفاسير، محمّد علي الصابوني، ص: **389/1**، د.ط، د.ت، شركة الشهاب الجزائر.

[25] الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ص: **206**، ط: **2**، **2006**، مكتبة النافذة، القاهرة.

[26] سورة لقمان، الآية: **16**

[27] سورة يس، الآية: **40**

[28] الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ص: **207**، ط: **02**، **2006**، مكتبة النافذ، القاهرة.

[29] قضية الإعجاز العلمي (للقرآن وضوابط التعامل معها)، زغلول النجار، د. ص: **08**، ط: **01**، يناير **2006**، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

[30] النقد الأدبي (دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن)، لاح الدين عبد التواب، ص: **03 – 05**، د.ط، دار الكتاب الحديث، القاهرة، **2003/1423**.

[31] الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق (دراسة قرآنية لغوية وبيانية) بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمان)، ص: **95**، ط: **3**، دار المعارف القاهرة.

[32] سورة الأعراف، الآية: **52**.

[33] عربية القرآن، عبد الصبور شاهين، ص: **83 – 84** ،ط: **1**، **2006**، مكتبة النافذة القاهرة.

[34] في تفسير القرآن وأسلوبه المعجز (علميا وبيانيا)، نور الدين عتر، ص: **06**، ط: **2**، **1999/1420**، مطبعة الصباح دمشق.

[35] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى ادق الرافعي، تح: عبد الله المنشاوي، ص: **281–282**، ط: **01**، مكتبة الإيمان، المنصورة، **1997/1417** .

[36] كلمة " ضيزى " والتي وردت في تركيب اعتراضي، لنقف عندها في التحليل من هذا الفصل.

[37] ينظر، التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص: **09**، **36** و**58**، ط: **10**، **2004/1425**، دار الشروق القاهرة.

[38] ينظر، علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر، ص: **209**، ط: **06**، **1997/1416**، مطبعة الصباح، دمشق.

[39] سورة هود، الآية: **42**.

[40] سورة البقرة، الآية: **19**.

[41] ينظر، فك الإسار في شعر الهزار، مُحَمَّد الصغير بناني، د. ص: **12**، د.ط، مركز البحث والإعلام، الجزائر، **1996**.

[42] مفتاح العلوم، السكاكي، ص: **176**، تح: أكرم عثمان يوسف، ط: **01**، **1982**، مطبعة الرسالة.

[43] نظام الخطاب القرآني (تحليل سيميائي مركب سورة الرحمن)، عبد المالك مرتاض، د. ص: **32**، د.ط، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر **2001**

[44] سورة البقرة، الآية: **23**، **24**.

[45] فك الإسار في شعر الهزار، مُحَمَّد الصغير بناني،ص: **24**، د.ط، مركز البحث في الإعلام، الجزائر، **1996**.

[46] ينظر، الجملة العربية والمعنى، ا لح فاضل السمرائي، د. ص: **244**، ط: **01**، **2000/1421**، دار ابن حزم للطباعة، بيروت، لبنان .

[47] سورة الإسراء، الآية: **88**.

[48] ينظر، مختصر تفسيرا بن كثير، مُحَمَّد علي الصابوني، ص **41/1**، د.ط، دار القرآن الكريم، بيروت، **1402/ 1982**.

[49] ينظر، تفسير التحرير والتنوير، سابق، ص: **342/1** و **261/6**.

[50] نفسه، ص: **342/1** .

[51] ينظر، تفسير النسفي، الإمام النسفي، ص: **802/1**، د.ط ،دار الكتاب العربي، بيروت، **1982/1402**.

[52] تفسير الكشاف، الزمخشري، ص: **248/1**، د.ط، د. ت، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

[53] النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن)، مُحَمَّد عبد الله دراز، د. ص: **85**، د.ط، دار القلم الكويتية، **1984/1404**.

[54] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص: **169**، تح: عبد الله المنشاوي، ط: **01**، **1997/1417**، مكتبة الإيمان، المنصورة.

[55] الجامع لإعراب جمل القرآن، أيمن الشواء، ص: **56**، ط: **01**، **2000/1421**، دار الفيحاء، بيروت.

[56] ينظر، القرآن معجزة الإسلام (دراسات حول القرآن)، مصطفى ثابت، ص: **20**، ط: **1**، **2006**، مكتبة النافذة، القاهرة.

[57] سورة آل عمران، الآية: **135**.

[58] ينظر، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ص: **119/2**، ط: **6**، **1984/1404**، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

[59] في ظلال القرآن، سيد قطب، ص: **476/1**، د.ط، دار الشرق، بيروت، **1976/1393**.

[60] في ظلال القرآن، سابق، ص **476**.

[61] ينظر، الأ وات اللغوية، إبراهيم أنيس، د. ص: **58–66**، ط: **04**، **1999**، مكتبة الأنجلو المصرية.

[62] سورة النساء، الآية: **48**.

[63] ينظر تفسير التحرير والتنوير، سابق، ص: **92/4**.

[64] سورة الروم، من الآية: **1–4**.

[65] ينظر، علوم القرآن، ص: **216**.

[66] ينظر، البرهان على دق تنزيل القرآن، د. نبيل عبد السلام هارون، ص: **145**، ط: **02**، **1994/1415**، دار النشر للجامعات، القاهرة.

[67] سورة البقرة، الآية: **72–73**.

[68] ينظر، الكشاف، سابق، ص: **279/1** وص: **17/2**، وتفسير البحر المحيط، أبو حيان، ص: **269/1**، د.ط، مطبعة السعادة، مصر، **1329**، والدر، ص: **435/1**. وينظر المثل السائر، ابن الأثير، ص: **186/2**، تح: مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد، ط: **02**، **1995/1416**، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، والبرهان في علوم القرآن، الزركشي، ص: **59/3**، تح: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، ط: **02**، **1957**، مطبعة البابي الحلبي.